قراءة

ماذا لو استيقظ الناس فجأة، ووجدوا أنفسهم بلا كتب ولا كتّاب، أو لم يجدوا أحداً جديراً بلقب الكاتب الكبير؟ الدافع إلى هذا السؤال هو تجذّر انفتاح المجتمعات واقتصاد السوق وتطوّر وسائل الاتصال، وانهزام المفاهيم الموروثة عن الكتابة والأدب والفن

محمد الأسعد

مع مستهل القرن الجديد الذي نعيش ربعه الأول، أطلق كاتبان في عالم الغرب سجالاً حول مصير الكتاب وأسواقه، والأديب وأدبه، والكاتب الكبير ومكانته. أحدهما هو الفرنسي هنري رايسمو، والآخر هو الروائي ماريو بارغاس يوسا من بيرو على حافة قارة أميركا اللاتينية.

هذا سجال من نوع معتاد، فكلما انتهى قرن أو ألفية من عمر البشرية، كثرت التنبّؤات، إما بنهاية الزمان أو بحلول العصر الخرافي السعيد. وهذه المرّة كانت النبوءة اختفاء ما يُدعى «الكاتب الكبير»، وتغيُّر وظيفة الكتابة الأدبية، في ظل تلاحق وتتابع ظواهر عصر أشرف على نهايته، وبدا يتقدّم بوعوده. فتساءل بعضهم: ما الذي يمكن أن يحدث لو استيقظ الناس فجأة، ووجدوا أنفسهم بلا كتب ولا كتّاب، أو لم يجدوا على الأقل أحداً جديراً بلقب الكاتب الكبير؟

كان الدافع إلى سؤال من هذا النوع تجذُّر انفتاح المجتمعات واقتصاد السوق وتطوُّر وسائل الاتصال والمواصلات وشاشات التلفزة، ووسائط الإعلام على وجه الخصوص التي سطّحت كل اتصال كما قال الكاتب الإيطالي إيتالو كالفينو قبل وفاته بوقت قصير، وهُزمت المفاهيم الموروثة عن الكتابة والأدب والفن. وأضيف إلى هذا احتشاد الجو بأصوات تذهب إلى أن عصر «الكتاب» قد انقضى، أو أن «الكتّاب» لم تعد لهم مهمّة في عصر الخبراء والتقانيين والعلماء.

في هذا الجو أطلق رايسمو مقولة «موت الكاتب الكبير» وجعلها عنواناً لكتاب له. وملخّصها أنه لم يعد لأي كاتب كبير وجود في العصر الراهن، ولن يكون في المستقبل. والسبب عنصران، أحدهما طغيان اقتصاد السوق، والآخر تحوّل الثقافة إلى ثقافة جماهيرية. وحسب اعتقاده، ستموت الآداب بمختلف أنواعها مع طغيان هذين العنصرين، لأنهما يتعارضان مع الدور الذي مارسه في زمنهم كتّاب من أمثال فولتير وإميل زولا وجيد وسارتر. ويعني بذلك دور المثقّف المراقب المفكّر والمدقّق الذي يتناول كل شيء، ويتدخّل في كل شيء، وتُؤخَذ أفكاره وآراؤه بوصفها القول الفصل في كل ميدان خاضه، أو سيخوضه.

خاطب هذا الكتاب القرّاء الفرنسيين، واستمد شواهده من عوالم الثقافة الفرنسية، إلّا أن النتائج التي توصّل إليها، والاستنتاجات التي يمكن استخلاصها منه، يمكن تعميمها على نطاق أوسع، لتشمل ثقافات غربية وغير غربية أخرى، لهذا لم يكن غريباً أن يتصدّى لمناقشة الكاتب وكتابه روائي من قارّة أخرى. هذا من جانب، ومن جانب آخر هنالك ما يشبه السوق الثقافي في عالم الغرب، سوق يتمّ فيه تداول المنتجات الفكرية والأدبية والفنية، وتناقش فيه قضية من القضايا في أكثر من عاصمة، وبأكثر من لغة، سواء طحنت طحيناً أو أثارت جعجعة.

انطلق الكاتب الفرنسي من واقعة تبدو بديهية: لا وجود في زمننا الراهن، ونحن على أعتاب ألفية جديدة، لشخصية من الشخصيات الأدبية التي تمتّعت بالهيبة والسلطة في الماضي، والتي أشرفت من علوّ على دائرة قرّائها والوسط الأدبي والفني، من أمثال فيكتور هوغو؛ شخصيات جعلت من نفوذها الثقافي شبه ضمير للأمّة كلها، شخصيات كانت بمثابة نموذج أوّلي ومثال بالنسبة لأوسع القطاعات الاجتماعية، بأفكارها ومواقفها وأسلوب حياتها.

وبناءً على ذلك، كما يقول، إذا ما أردنا دوام مكانة الكاتب الكبير، فلا بُد أن يتوفّر شرط ضروري لا يمكن تعويضه: على الأدب أن يمتلك هالة سحرية مقدّسة. هذا الأمر حدث في العصر المسمّى «عصر الأنوار» في أوروبا القرن السابع عشر، حين أحدث الفلاسفة الذين حطّموا التقاليد البالية والمعتقدات التي لا تقوم على أساس علمي أو عقلي، فراغاً احتلّته نظم جديدة ظهرت على أنقاض النظم القديمة. في ذلك العصر عُدّ الكتّابُ والفنّانون رسل وقادة المجتمع الجديد ورجاله المتفوّقين، أي المجتمع الذي نشأ وتطوّر في ظل اعتقاد بأن الآداب والفنون تمتلك جواباً عن كل شيء، سواء

عمل نحتي لـ فيليب راميت في مدينة نانت الفرنسية (Getty)

لماذا لا يحفّز الخلود الكتّاب المعاصرين كما في الماضي؟

تسويق كلّ شيء جعل من الكتاب سلعة تخضع للعرض والطلب

كان دنيوياً أو سماوياً. في هذا المناخ ظهرت منجزات كتّاب من أمثال الروائيين فلوبير وبروست وبلزاك والشاعر بودلير، وكلّهم ممن يعدّهم الكاتب كباراً، فهُم كما يقول على الرغم من اختلافاتهم وتفاوُت حدّة بصائرهم، تملّكتهم قناعة واحدة سرت إلى قرّائهم أيضاً؛ هي أنهم كانوا يكتبون من أجل الأجيال المقبلة، وأن آثارهم، إن عاشت بعدهم، ستثري حياة الإنسانية، أو «ستغيّر الحياة» كما قال الشاعر آرثور رامبو، وتكون سبب خلودهم.

ويتوقّف الكاتبُ أمام العبارة الأخيرة، عبارة رامبو، ويتساءل: «لماذا لا يحفّز إغراء الخلود الكتّابَ المعاصرين كما كان يفعل في الماضي؟». ويجيب ببساطة: «لأنهم وصلوا أفراداً وجماعات إلى قناعة بأن الأدب ليس خالداً بل هو معرَض للفناء، وأن الكتب تُكتب وتُنشر وتُقرأ أحياناً ثم تتبخّر إلى الأبد». وهذه الوضعية لا تدلّ على إيمان من ذلك النوع الذي جعل الأدب في يوم من الأيام ساميا، ومهنة خالدة، ومجمعاً لأسماء أفذاذ غير قابلة للفناء، بل تدلّ على واقع موضوعي فظ لم تعد فيه الكتب تُعدّ جوازات مرور إلى الخلود، بل أصبحت خدماً للزمن الراهن، الآن وهنا. ومن يكتبها سيُطرد من جبل الإلهام، جبل الأولمب الأسطوري، إذا ما خطر بباله أن يفعل كما كان يفعل ساكن الجبل «زوس» حسب الأساطير اليونانية، فيطلق الرعود أو الصواعق من الأعالي فوق مصادفات الحياة العامة، وسيُسحب إلى الأرض، إلى مستوى النظم الجماهيرية ومؤسّساتها «الديمقراطية»، إلى الأسفل، بعيداً عن ذرى جبل الأولمب، مقرّ المبدعين.

في هكذا مجتمع أرضي، كما يرى صاحب كتاب «موت الكاتب الكبير»، تعمل الميتان، وتواصلان باستمرار إفقاد الأدب مركزيته ومكانته، والهبوط به إلى مستوى منتج صناعي، بعيد كل البعد عما اعتدنا رؤيته كمنتج إبداعي فريد من نوعه.

الآلية الأولى اجتماعية/ ثقافية في وقت واحد معاً، فانقراض النخبة والنظر إلى الناس بوصفهم كتلاً لا يتميّز فيها فرد عن فرد آخر بموهبة أو صفة، كلُّ هذا دفن العناية بالماضي وتراثه والتفكير بالمستقبل، وجعل التركيزُ على الوضعية الراهنة الهمَّ الأول، وإشباع الحاجات الآنية غاية الغايات.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

أعراض السوق

حين يتحوّل المنتَج الأدبي إلى سلعة، نتوقع أن تلمّ به أعراض السطحية والضحالة نتيجة دخوله في دوّامة التسويق، أو الدردور المالي، ومتطلّباتها. هذه الدردور يبتلع كل ما يمر خلاله ولا يعود بعدها إلى السطح أبداً. إن انقلابا في المفاهيم يحدث هنا؛ يُنظر إلى الأدب الآن على أنه منتج للاستهلاك المباشر، للتسلية العابرة، أو للحصول على معلومات، أو للتنفيس عن رغبات فردية، أو مجنّد في خدمة أيديولوجية معيّنة.

متابعة

توفيق بن بريك تجاوز حدود حرية التعبير أم عودة الزمن القديم؟

صراع تابوهات متضاربة

يُعيد حكم قضائيّ بسجن الكاتب التونسي إلى الأذهان تضييقات نظام بن علي ضدّه. لكن هل يعني زمن الثورة أن حرية التعبير بلا حدود؟

تونس ـ ليلى بن صالح

في 23 من تموز/ يوليو الجاري، قضت محكمة في تونس العاصمة بحبس الكاتب التونسي توفيق بن بريك (1961) لمدة ستة على خلفية تصريحات كان قد أطلقها في 2019 اعتبرت «اعتداء على هيبة القضاء».

لم تتناغ الأصوات المطالبة بالإفراج عن صاحب رواية «اللص»، في مشهد يذكّر بحملات مماثلة حدثت في تونس قبل «ثورة 2011» حين كان بن بريك أحد أكثر الأقلام مشاكسة لنظام بن علي، وتعرّض لاعتداءات عدة بدأت في 1988 حين طرد من الصحيفة الحكومية التي كانت يعمل فيها.

لكن أشهر حادثة تضييق ضدّه في عام 2000 حين سُحب جواز سفره، ليخوض بعد ذلك إضراب جوع سلّطت عليه الصحافة الدولية والمنظمات الحقوقية الأضواء مما ضغط على نظام بن علي لإعادة حقوقه.

وكانت آخر الاشتباكات مع السلطة في 2009 حين حُكم عليه بالسجن لمدة ستة أشهر بعد إدانته بتهمة التهجّم على امرأة في الشارع وهو ما اعتبره بن بريك قضية ملفّقة. ورغم الحملة الدولية الجديدة لإسقاط الحكم ضدّه قضى الكاتب التونسي مدة عقوبته ليخرج قبل شهور قليلة من اندلاع الثورة (منتصف كانون الأول/ ديسمبر 2010).

هذا «المسار»، أتاح لبن بريك موقعاً في مرحلة ما بعد الثورة كأحد صنّاع الرأي فأطلق جريدة بعنوان «ضد السلطة» كانت قريبة من أقصى اليسار أو بالأحرى إلى النزعة الفوضوية، لكنها توقّفت بعد أشهر من إطلاقها لأسباب مادية ودون أي إشكاليات مع أجهزة الدولة. ليستمر حضور بن بريك على المستوى الإعلامي من خلال فقرات قارة كانت تخصّصها له قنوات تلفزيونية للتعليق على الشأن السياسي، واتسمت جلّ تدخّلاته بالحدة والسخرية من السياسات المتبعة.

بدا بن بريك وكأنه قد انتقل إلى ضفة سياسية جديدة قبيل انتخابات 2014، حين شارك في الحملة الرئاسية لرجل الأعمال نبيل القروي، والذي طاولته خلالها أحكام قضائية متعلّقة بالفساد اعتبرها أنصاره توظيفاً لأدوات الدولة لضرب الخصوم السياسيين، وفي هذا الإطار كانت تصريحات بن بريك المنتقدة للقضاء.

القضية الجديدة لصاحب «الإخوة هملت» تضعنا أمام إحدى مفارقات الزمن الديمقراطي؛ فمن جهة هي استقواء من السلطة القضائية على حرية التعبير، ومن جهة أخرى تتضمّن «اعتداء لفظياً» من مثقف على جهاز سيادي لا تستمر الدولة دون فرض هيبته.

هكذا، ومثل شخصيته وانتماءاته السياسية (وحتى الأدبية) هناك صعوبة في تصنيف قضية بن بريك، من أي وجه نأخذها، وكل منطلق يؤدّي إلى نتائج معروفة سلفاً، إنه صراع متجدّد بين الدولة والمجتمع المدني يتجلى في كل مرة عبر مفردات جديدة ومن كل زاوية يختلط المعتدي بالضحية. فهل نعرف أي حدود لحرية التعبير في تونس؟ وهل نعلم أي حدود للقضاء كسلطة في المجتمع؟

أسئلة لن نجد إجاباتها، لأن الزمن الديمقراطي في تونس أدخل الجميع في نسق عال من الحوادث والسجالات (لن تكون قضية بن بريك آخرها) من دون أن يرافق ذلك تفكير أو نظر في التركيبات العميقة للواقع الجديد بما فيه من تناقضات وتابوهات متضاربة.

مثل شخصيته وانتماءاته السياسية هناك صعوبة بتصنيف قضية بن بريك

توفيق بن بريك (فتحي بلعيد/ Getty)

شذرات

الواقعية والاشتراكية والتحليل النفساني والتجربة اللغوية، هذه جميعها مقتربات ممتعة إلى الرواية، إلا أنّها ليست مادتها أو جوهرها. والدافع الرئيس للرواية هو ضرورة إحداث واقع مرغوب فيه: أي إسقاط صورة للحياة التي تهوى أن تعيشها، ونمط للإنسان الذي تريد أن تكونه.

كولن ولسون ـ «فن الرواية»، ترجمة: محمد درويش

ليس النقد حقلاً أدبياً، ولم يكن كذلك مطلقاً. فإذا كان الأدب هو غاية الأدب نفسه فليس هو المصدر الوحيد لعملية تكوّنه، فللنقد حياته الخاصة المستقلة نسبياً، قوانينه وبنياته الخاصة: إنّه يشكل نظاماً معقداً داخلياً يتمفصل مع النظام الأدبي أكثر من كونه يعكس هذا النظام.

تيري إيغلتون ـ «النقد والإيديولوجيا»، ترجمة: فخري صالح

إذا اقبل إليكَ مُقْبِلٌ بودّه فسَرَّكَ الا يُدبرَ عنكَ، فلا تُنْعم الإقبالَ عليه والتفتّحَ لهُ، فإنّ الإنسانَ طُبِعَ على ضرائب لوَم. فمن شأنه ان يَرْحَلَ عمّن لَصِقَ به ويلصقَ بمن رحلَ عنه إلا من حَفِظَ بالادبِ نفسهُ وكابرَ طَبعهُ. فتحفّظْ من هذا فيكَ وفي غيركَ.

ابن المقفَّع ـ «الادب الكبير»

قد لا نعرف ما هو الخير المطلق او القاعدة المطلقة، وقد لا نعرف حتى ما هو الإنسان او الإنساني او الإنسانية، لكننا نعرف جيداً ما هو اللاإنساني، واميل الى القول إنّ مكان الفلسفة الخُلقية اليوم يكمن في شجب اللاإنساني شجباً ملموساً».

جوديث بتلر ـ «اذات تصف نفسها»، ترجمة: فلاح رحيم

قصائد

أخي ألبيرتو

ألبا طوني

كان لي أخٌ رائعٌ ومحبوبٌ جدّاً، أخي الوحيد، حياتي، ألبيرتو طوني، واحدٌ من أهمّ الشعراء المعاصرين، كان أخي. معه عشت قدر ما استطعنا أن نبقى سوياً، بين ثنائية شخصية الشاعر العامّة والمودة الأخوية العميقة التي كانت تربطنا. رحل ألبيرتو في السادس من نيسان/ أبريل 2019، العام الماضي، بعد مرض شرس وعاصف، دفعني في لحظة واحدة إلى عالم مألوف جدّاً ولكنه أيضاً غريبٌ على نحو مفاجئ، الغياب.

سيستغرق الأمر منّي وقتاً لفهم كيفية استعادة تلك اللغة التي كنّا نشترك فيها، والتي كان يمكن للآخرين أيضاً فهمها، وهو أمرٌ معلّق على ذلك التوازن بين ما كنّا عليه سوياً وما كان عليه مفرداً.

استعدتُ مؤخّراً بعضاً من أعماله غير المنشورة بالمعنى المتعارَف عليه، أي في الكتب، حيث نُشرت هذه القصائد في طبعات أصلية تشبه تلك المطبوعات الملوّنة الحمراء الصغيرة. كانت مجموعة صغيرة بعنوان «قطقطة»، عن سلسلة Exemplar di Poesia التي كان يديرها Francesco Guadagnuolo، صدرت الطبعة الأولى منها في تشرين الأول/ أكتوبر 1995.

البيرتو وأنا كنّا نحب كثيراً «قطقطة»، وكثيراً ما كُنّا نستذكر قصائدها، والتي يمكن أن يُقتفى فيها أثر مهمّ لحياتنا العائلية، واحدة من هذه القصائد الخمس، الثالثة، مستوحاةٌ بشكل صريح من التجربة التي مررنا بها مع قطّنا «أوليسي»، والتي خلّفت أثراً كبيراً علينا جميعاً. رحل «أوليسي» بشكل مأساوي قبل الأوان عام 1993 وهو في سنّ الثامنة، عشنا حداداً طويلاً عليه، خصوصاً أنا. من خلال هذه القصيدة التي تُصوّر الشعور الرقيق إزاء صديقنا القط، جعلني البيرتو أفهم كم كان يحبّه هو الآخر. والآن، وبعد عام على رحيله بهذه الطريقة، أريد فقط أن أتذكّر أخي، الذي كان شاعراً عظيماً، ولكنه أوّلاً وقبل كلّ شيء، في العالم، كان كأيّ صبيّ له أخت نشأ بجانبها.

كأيّ صبيّ له أخت

قطقطة

البيرتو طوني

1

قطّ تونكين* المسجّى بالعشب -
من الشرق إلى الغرب، كم بقي له من العمر،
قطع نهر الميكونغ.
كم كنت مجنوناً يا قطّ وليس عليك تكرار ذلك...
حطّ عندي
وأنا لا أعرف هدنة - التقاني وحيّاني بكياسة.

انتهيتَ بكرامة يا قط في حالة من الفوضى...

قط تونكين المهجور في المنفى -
كم هو منهكٌ اللحاق به - المنفيّ بفرو مبتل رطب رماديّ.

كم كنت ساخطاً يا قط فوق كل تصوّر ...

الأمّة كلُّها مجبرةٌ على تحمُّل
نفخة الغضب المتاصل -
قطّ تونكين على التلفاز وقت الذروة.

كنتَ ضميري يا قطّ في جوف الليل...

مباشرة نحو الهدف -
ألم وشغف، أجده
في أروقة الجامعة.

كنتَ مجرّد عجلة صغيرة يا قطّ ضمن العدّة.
نهاية اللعبة على حين غرّة تختفي!
- إلى الموت رأساً.

(تونكين: مدينة في فيتنام)

2

قطقطة يا قطقطة يا ترنيمة بائسة
القطُّ فوق رأسي
يريد إخباري بشيء لا أفهمه.
يكرّر المرثية ذاتها.

قطقطة يا قطقطة حياتي ضائعة -
آه من اختراق المسارات السّورية،
بالكاد في الوقت المناسب لتجميع القطع
أمام المرآة وتتهاوى.

قطقطة يا قطقطة فليكن ذلك -
المزهرية على النافذة
فروه الأسود يشمّها.

وأنت يا عزيزتي ماذا تنتظرين لإعطائي قُبلة؟

(* الشاعر الإيطالي جوزيبي أونغاريتي (1888 . 1970) كان لديه قط اسمه بوبوسي، والشاعر نفسه . البيرتو طوني . كان لديه قط اسمه أوليسي. ** ملك كريت الأسطوري/ م)
(ترجمة عن الإيطالية: أمل بوشارب)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

بطاقة

Alberto Toni، شاعرٌ وكاتب ومسرحي إيطالي من مواليد روما (1954 - 2019). صدر له عشرون عملاً شعرياً وسردياً، آخرها «الألم» (2016) عن منشورات Samuele Editore. «قطقطة» هي خمسُ قصائد نُشرت للشاعر في ذكرى رحيله الأولى في السادس من نيسان/ أبريل الفارط على مدوّنة الشعر الخاصّة بالإذاعة والتلفزيون الإيطالية RAI. ننشر قصائده هذه بالعربية مرفقةً بكلمة تقديمية من شقيقته ألبا طوني.

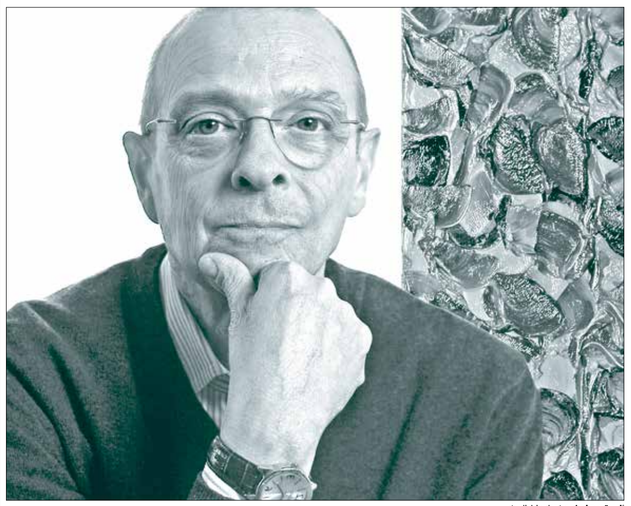

البيرتو طوني (دينو إينيانى)